حضارة گُوزانا (غُوزانا) Guzana الكردستانية في فجر التاريخ

د. أحمد محمود الخليل

الجزء الأكبر من كردستان في المنطقة التي تسمّى (الهلال الخصيب)، وهي أكثر مناطق غربي آسيا اتصافاً بوفرة الأمطار والينابيع والأنهار، وتجمع بين جغرافيا الجبال والسهول، وتمتاز بخصوبة التربة، وانتظام الفصول الأربعة. هذه المزايا أهّلت منطقة الهلال الخصيب لأن تكون مهد الحضارة في فجر تاريخ البشرية، ولا يخفى أن كردستان تقع في قلب منطقة الهلال الخصيب، وكان من الطبيعي أن تكون من أبرز المَواطن التي ظهرت فيها الحضارة، ونتناول في هذه الدراسة واحدة من أهم تلك الحضارات، هي حضارة كوزانا.

جغرافيا حضارة كوزانا وتاريخها:

نُسبت هذه الحضارة في بعض المصادر إلى (تل حَلَف) الواقع في أعالي نهر الخابور، ولذلك سمّاها المؤرخون (حضارة حَلَف) Halaf . والاسم القديم للتل هو (كوزانا) Guzana، وهو يقع على مسافة حوالي (140 ميلاً/220 كم) شمال غربي نينوى، يقع على الضفة اليمنى لنهر الخابور، وتحديداً على جنوب غربي مدينة رأس العين السورية، قرب الحدود السورية التركية. وذكر جيمس ميلارت أن هذه الحضارة انتشرت على شكل قوس من نهر الفرات إلى الزاب الكبير (الأعلى)، ومن المحتمل أن تكون جبال طوروس حدودها الشمالية، مع جيوب منتشرة في الهضبة الأناضولية إلى الشمال من هذه الجبال، وقد اندثرت حضارة كوزانا في الفترة بين (4400 - 4300 ق. م)(1).

(جغرافيا حضارة كوزانا Guzana /حَلَف)

وقال الدكتور محمد بَيُومي مَهْران بشأن حضارة كوزانا: "تشغل حضارة حَلَف الفترة منذ أواخر الألف السادسة، وحتى أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد انتشر إنتاجها في الشمال خاصة، وفي مساحة تمتد من الزاب الأعلى، وسفوح جبال زاغروس شرقاً، إلى ما وراء الفرات غرباً، وإلى الحدود التركية وسفوح جبال طوروس شمالاً، وأما من ناحية الجنوب والجنوب الشرقي فكان من المعتقد أنها لم تتجاوز موقع سامرّاء [= شمالي بغداد]، غير أن الحفريات كشفت حديثاً عن فخّار

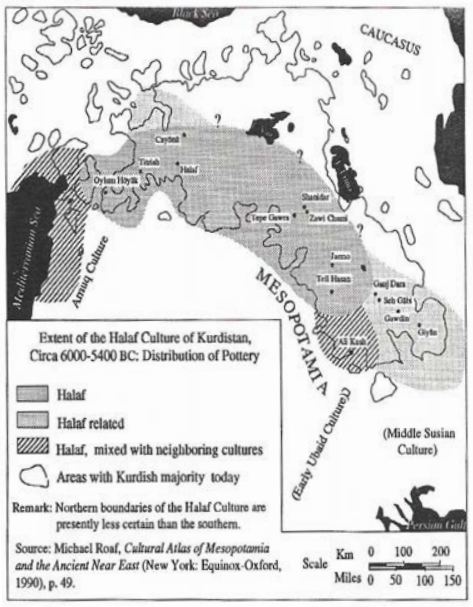

كوزانا في الطبقتين العلويتين في تل الصوان، وفي أعلى تل Chga-Mami في إقليم مَنْدَلي(2).

وخلاصة ما تفيده المعلومات الدائرة حول حضارة كوزانا، هي أن معظم المناطق التي نشأت فيه هذه الحضارة- إن لم يكن جميعها- تقع ضمن جغرافيا كردستان حالياً، وضمن الجغرافيا التي سكنها أسلاف الكرد، وما زال الكرد يسكنون معظم تلك المناطق.

مظاهر حضارة كوزانا:

1 - في مجال الزراعة وتدجين الحيوان: كان سكان حضارة كوزانا يعملون في الزراعة، بدليل وجود المناجل ذات النِّصال المصنوعة من الصوّان بالمئات في هذه المواقع، كما أنهم زرعوا الشعير والقمح، وأنتجوا الخيوط الكَتّانية، واستخرجوا زيت بذر الكَتّان، وقاموا بتدجين المواشي كالماعز والغنم(3).

2 - في مجال الصناعة: من خصائص حضارة كوزانا استخدام النحاس، ولذلك فهي تُعتبَر، بحسب التقسيم التقليدي لعصور ما قبل التاريخ- ممثِّلةً للعصر الحجري النحاسي في ميزوبوتاميا، وقد ذكر وليام لانجر أن أقدم

الحضارات التي عُثر فيها على النحاس توجد في الشرق الأدنى، ويرجع زمنها التقديري إلى ما بين (4000 – 3500 ق.م)، ولم يوجد النحاس في أوربا قبل سنة (2000 ق.م). ورجّح لانجر أيضاً أن تكون آسيا الصغرى وأرمينيا والقوقاز أولى المناطق التي ظهرت فيها صناعة استخراج النحاس وتطورت فيها، وأن النحاس كان واسع الاستعمال في الشرق الأدنى عام (3000 ق.م)، ولا يخفى أن منطقة حضارة كوزانا تقع إما في قلب المناطق التي ذكرها لانجر بشأن النحاس، وإما على أطرافها(4).

3 - في مجال العمارة: اشتهرت حضارة كوزانا بالأبنية الدائرية، وهي مبانٍ أساسها- في الغالب- من حجر، وحيطانها من طين، وتتكوّن من حُجرة دائرية قطرها خمسة أمتار ونصف المتر، يتصل بها ممر مستطيل، وكان للحجرة الدائرية سقف مقبَّب. وأما فخّار حضارة كوزانا فتميّز بألوانه وزيناته التي تمثّل تفوقاً نوعياً، ولُوّن الفخار بألوان مختلفة، منها البرتقالي والقرمزي والأحمر والبنّي والأصفر، وغطّت الزينات كل سطح الإناء الفخاري الخارجي، كما اشتملت الزينة على مجموعات مختلفة من رسوم هندسية ذات أشكال مثلثة ومربعة، وذات خطوط متعرجة ومستقيمة(5).

وقال جين بوترو وزملاؤه بصدد حضارات غربي آسيا: «إن فخّار هذه الحضارات ليس ذا صناعة تقنية فقط، بل إنه جميل للغاية، وغالباً ما تكون الزخارف الملوّنة هندسية، ولكن هناك بعض الأشكال الطبيعية وأشكال مشتقة من الطبيعة. وأكثرها انتشاراً هو فخّار تل حلف، حيث يصل من مركزه في ما بين النهرين إلى سوريا وسيليسيا [= كيليكيا]، وإلى الشرق من بلاد آشور، بل حتى إلى أرمينيا. وقد لُوّن في قمّة تطوّره الفنّي بألوان متعدّدة»(6).

وأنتجت حضارة كوزانا عدداً من الأواني الحجرية، ورؤوس المغازل وغيرها، مما يعبّر عن تفوق في تشكيل المادة الحجرية، ويتجلّى ذلك بوضوح في أدوات الزينة التي شكّلت من الحجر، كما استخدم سكان حضارة كوزانا الطين في صناعة المسامير الملوّنة والخواتم، هذا إلى جانب إنتاج بعض الأختام التي استُخدمت، ربما لأول مرة، في الطباعة على قطع من طين مجفَّف، وأخيراً عُثر على بعض المصنوعات النحاسية كالدبابيس والأزاميل، غير أن عددها كان محدوداً، رغم توافر النحاس في منطقة دياربكر وملاطيا، في شمال وشمال غربي منطقة حضارة كوزانا(7).

4 - في مجال التجارة: كتب جيمس ميلارت:» كانت تجارة حلف واسعة النطاق، وجيّدة التنظيم، فقد حصلوا على الزجاج البركاني الأسود (الأوبسيديان) من منطقة بحيرة فان، كما حصلوا على أصداف المحيط الهندي من الخليج العربي، وكانوا يصدرون الفخار الحلفي إلى مناطق أخرى، حيث عُثر على هذا الفخّار في (تلكي تَبه) قرب بحيرة فان التي يُعتقَد أنها كانت سوقاً لبضائع حلف وفي أماكن أخرى في منطقة (مالاتيا) الغنية بالنحاس والذهب. ويمكن أن نشاهد آثار حلف ومستوراتها في أشكال الأواني ونماذج الزخرفة في المنطقة الممتدة من الخليج العربي حتى البحر المتوسط»(8).

5 -في مجال الميثولوجيا: ظهرت في حضارة كوزانا تماثيل آلهة الأمومة، وقد اعتنى الفنّان بإبراز مظاهر الخصوبة في أجسامها، بتضخيم وطلاء ثديَي الإلهة وساقيها، فضلاً عن تمثيلها وهي تضم ذراعيها أسفل ثدييها. وكانت المدافن تحت أرضية المساكن في الغالب، وكان الميّت يُرقَد على جنبه الأيمن، في وضع المُقَرْفِص، ويكون الرأس في جهة الغرب، واحتوت المقابر على بعض المتاع الشخصي، كالآنية الحجرية الصغيرة والأكواب والأواني الفخارية، وحبّات العقود المرمرية، إضافة إلى دلّايات من حجر، زُيّنت إحداها بصور لطيور ورؤوس حيوانات(9).

والأرجح أن لوضع رأس الميّت- عند الدفن- في جهة الغرب علاقةٌ بتقديس جهة الشرق، الجهة التي تشرق منها الشمس، ولعله دليل على بدايات تشكّل البنى الميثولوجية الشمسانية، وسنجد لاحقاً أن هذه الميثولوجيا كانت سائدة بين سكان جبال زاغروس منذ

الألف الثالث ق.م. كما أن لوجود بعض المتاع الشخصي مع المتوفّى علاقة بعقيدة وجود العالم الآخر، وربما كان سكّان حضارة كوزانا يؤمنون بأن الحياة تعود إلى المتوفّى بطريقة من الطرق، يحتاج معها إلى استخدام بعض تلك الأمتعة، ومثل هذا الاعتقاد موجود عند معظم الأقـوام الـتي عاشت في فـترة ما قبل العصور التاريخية، وليس من المستبعَد أيضاً أن القوم كانوا يضعون بعض أمتعة المتوفّى معه في القبر، خشية من أن تطاردهم روحه، وتنكّد عليهم العيش.

وعلى العموم لا يمكن إغفال دور حضارة كوزانا في تطوير الثقافة البشرية، وخاصة في المجال الميثولوجي، وهذا واضح على الأقل في قصة الطوفان، فقد جاء في الرواية السومرية أن سفينة زِيُوسُودْرا Ziusudra (أُوتْنابيشْتِم Utnapishtim في الرواية السامية) استقرت على جبل نِيسِير Nisir، وهو جبل بِيرَه مَكْرُونPîre megrun في جنوبي كردستان، وهناك اختبر زِيُوسُودْرا انحسار المياه، فأطلق حمامة فعادت، ثم أطلق سنونو فعاد أيضاً، ثم أطلق غراباً، فرأى الغراب أن المياه قد انحسرت، فحطّ وأكل ولم يعد(10).

ومعروف أن قصة الطوفان وردت في (العهد القديم) الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين، ووردت في (القرآن) الكتاب المقدس عند المسلمين، لقد جاء في (العهد القديم) أن سفينة النبي نوح رست على إحدى قمم جبل آرارات (آكري)، وجاء في (القرآن) أنها رست على قمة جبل جُودي، وبالمقارنة بين موقع كل من جبل نِيسِير وجبل آرارات وجبل جُودي من جهة، ومنطقة حضارة كوزانا من جهة أخرى، يتضح أن جبل نِيسير يقع في الجزء الشرقي من منطقة حضارة كوزانا، ويقع جبل آرارات في حافتها الشمالية، في حين يقع جبل جُودي في صميم تلك المنطقة.

حقيقتان تاريخيتان:

إن الأدلة السابقة- وقد حاولنا عرضها بإيجاز- تؤكد حقيقتين اثنتين:

الحقيقة الأولى: إن كردستان، ومنذ العصر الحجري القديم، لم تكن أرضاً خالية قطّ، وإنما كانت مسكونة بجماعات من البشر، أما ما هي الهوّية السلالية لتلك الجماعات؟ ومنذ متى استقرّت هناك؟ وهل وُجدت أصلاً في تلك المنطقة، أم قدمت إليها من مناطق أخرى؟ فلم نجد في المصادر التي اطّلعنا عليها إجابات دقيقة عن هذه الأسئلة، لأن العصور التي ظهرت فيها تلك الجماعات هي سابقة على عصر هجرة السلالات الآرية والسامية وانتشارها، كما أنها سابقة على عصر ظهور الكتابة، وقد أطلق عليهم بعض الباحثين اسم (الجنس القوقازي) تجاوزاً، والصواب أن نطلق عليهم اسم سكان زاغروس القدماء(11).

الحقيقة الثانية: إن ظهور بوادر الحضارة في موطن أسلاف الكرد، منذ العصر الحجري القديم، دليل على أن الشروط المُناخية والبيئية في تلك المنطقة كانت ملائمة لذلك بصورة عامة، وأن تلك الشروط استمرّت قائمة في العهود التالية، وإلا لما استمر تطور الحياة البشرية بعد العصر الحجري الأول، وكان من الطبيعي- والحال هذه- أن تصبح تلك المنطقة خزّاناً يفيض بمكوّناته البشرية والحضارية على المناطق المجاورة، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان السومريون من أوائل تلك المكوّنات.

ولعل من المفيد في هذا المجال أن نسرد القول التالي لأرْنُولد تُوينْبي: «إن المنطقة التي اختُرعت فيها الزراعة وتربية المواشي والتعدين لأول مرة كانت تشمل- إضافة إلى الجزيرة الفراتية (ميزوبوتاميا) وسوريا وفلسطين- جزءاً على الأقل من جنوب آسيا الصغرى، وغرب إيران وتركمانستان. والحبوب والحيوانات التي دُجّنت في هذه المنطقة، خلال زمن العصر الحجري من تاريخها، كانت موجودة من قبل في حالتها البرية. أما في الأماكن الأخرى فإن هذه النباتات والحيوانات بالذات يبدو أنها نُقلت من جنوب غرب آسيا، إما بواسطة مستعمِرين خرجوا من هذه المنطقة ذاتها، أو عن طريق شعوب محلية أصلية، هي التي اقتبست هذه الاختراعات»(12).

المصادر:

1 - جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص 157.

2 - محمد بيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص 20.

3 - عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص 27. جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص 157، 161، 163.

4 - وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، 24/1.

5 - محمد بيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص 21- 22

6 - جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكّرة، ص 36.

7 - محمد بيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص 22 – 23.

8 - جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص 162.

9 - محمد بيّومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص 23.

10 - جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص 24. فاضل عبد الواحد علي: من سومر إلى التوراة، ص 210 – 211.

11 - أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص 195.

12 - أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، 69/1.